

## القصيدة اليتيمة والدوقلة

عبد القادر زمامة

ألفنا في تاريخ الأدب العربي أن نجد بعض القصائد شهرة بأسماء عرفت بها عند الرواة والمؤلفين في مختلف العصور ، ويشمل ذلك قصائد بأعيانها لشعراء معروفين أو مجهولين ، كما يشمل مجموعات معينة تشترك في خاصة ما اعتبرها الرواة والمؤلفين في الأدب العربي سبباً للتسمية .

فيآلى جانب القصائد التي سميت بالمعلقات ، وتحت هذا الاسم حُفظت ورُويت ودونت وشرحت ، نجد أبا زيد القرشي في الجمهرة يذكر مجموعات من القصائد يبلغ تعدادها سبع مجموعات ، وكل مجموعة تضم سبع قصائد . وقد سُمى كل مجموعة اسماً خاصاً بها . فهناك المعلقات ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبات ، والمراثي ، والمشوبات ، والملححات .

● [ حظيت القصيدة اليتيمة بدارسين كبار عُنوا بتحقيقها ونشرها وتخرّيج آياتها . نذكر منهم :

- الدكتور صلاح الدين المنجد : القصيدة اليتيمة برواية القاضي التنوخي ( ط ٢ ،

بيروت ١٩٧٤ م )

- الأستاذ زكي ذاكر العاني : ديوان علي بن جبلة / العكوك ( بغداد ١٩٧١ م )

- الدكتور حسين عطوان : شعر علي بن جبلة / العكوك ( مصر ١٩٧٢ م )

- الأستاذ عبد الله الجبوري : ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره ( بيروت

١٩٨٤ م ) / المجلة ]

والجاحظ في البيان والتبيين<sup>(١)</sup> يحدثنا عن الأشعار المنصفة التي كان المربديون والمسجديون في عصره يروونها ، ويعدون من لم يروها ليس من الرواة المعتد بروايتهم .

وفي معركة المفاخرات والمهاجاة الثلاثية بين جرير والفرزدق والأخطل ظهر اللون الشعري المسمى بشعر المناقضات . واختار الرواة من قصائد هذا اللون قصائد سموها بأسماء خاصة عرفت بها في كتب الأدب ... .

والطريف في هذا الباب أن نجد المفكر الأديب محمد بن داود الظاهري الاصفهاني المتوفى سنة ٢٩٧ هـ في كتابه الزهرة يقول : « الشعر الذي لا تشيب له يلقب بالحصى . وتسمى القصيدة منه البتراء<sup>(٢)</sup> » .

وتتبع هذه الظاهرة يقتضي منا تتبعاً لعدة أنواع من التسمية وأسبابها في موضوع القصيدة وشكلها وبجرها وقافيتها وما إلى ذلك .

بيد أننا بصدد الحديث عن قصيدة معينة اشتهرت باسم : اليتيمة ، نسبت قديماً وحديثاً إلى عدة شعراء ، ومنهم هذا الذي يسميه بعض الرواة بهذا الاسم الغريب : الدوقلة .

وأريد قبل الحديث عن هذه اليتيمة وصاحبها ، أن أشير إلى أن المفضل الضبي اختار في كتابه : « المفضليات » قصيدة للشاعر المخضرم سويد بن أبي كاهل اليشكري عرفت باسم : اليتيمة مطلعها :

رب من أنضجت غيظاً صدره      قد تمنى لي موتاً لم يطع

(١) البيان والتبيين ٤ : ٢٣ ، تح عبد السلام هارون .

(٢) الزهرة ١ : ٣٧٢ ( بيروت ١٩٣٣ م ) .

ويراني كالشجا في حلقه عسرا مخرجه ما ينتزع<sup>(٣)</sup>  
واقطف منها ابن قتيبة بعض الأبيات في كتابه : الشعر  
والشعراء<sup>(٤)</sup> .

أما القصيدة اليتيمة المنسوبة إلى هذا الدوقلة فهي قصيدة أخرى  
تباين قصيدة ابن أبي كاهل اليشكري شكلا ومضمونا ووزنا وقافية ،  
مطلعها :

هل بالطلول لسائل ردُّ أم هل لها بتكلم عهدُ  
درس الجديد جديد معهدا فكأنها هي ريطه جرد

وهي كما تسمى بالقصيدة اليتيمة تسمى بالقصيدة الدعدية ، لأن  
صاحبها أطنب في الحديث عن دعد وخلقها وخلقها وهيامه بها .

ووجه تسمية هذه القصيدة بالقصيدة الدعدية ظاهر مما ذكرنا ،  
بخلاف تسميتها بالقصيدة اليتيمة فإنه يحتاج إلى ربطه بالمادة اللغوية  
اليتيم ، ربطا حقيقياً أو مجازياً .

فالمادة اللغوية - بناء على ما في المعاجم - تعني في الأصل الانفراد ،  
واليتيم هو المنفرد . ومن هذا المعنى الأصلي ظهرت معان أخرى معروفة .

فهل روعي في وصفها باليتيم أنها منفردة في بابها شكلا ومضمونا كما  
تقول في الجوهرة الكريمة النفيسة : إنها جوهرة يتيمة أو درة يتيمة . وكما  
تقول في البيت الشعري الجيد المعنى والمبنى : إنه بيت يتيم ، منفرد في  
بابه ، لا سابق له ولا لاحق ؟ .

(٣) المفضليات : ١٩٠ ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ١٩٤٠ م .

(٤) الشعر والشعراء ١ : ٣٨٤ ، تحقيق أحمد شاکر . القاهرة ١٣٦٤ هـ .

أم روعي في وصفها باليتم أنها غير معروفة النسبة المحققة إلى شاعر معين معروف تطمئن النفس إليه ، وتكون القصيدة من بنات قريحته وعبقريته الشعرية ؟ .

وسواء تحقق هذا الاحتمال أو ذاك فإن هذه القصيدة عرفت بالقصيدة الدعدية كما عرفت بالقصيدة اليتيمة .

ولعل من أقدم المصادر التي أشارت إلى بعض الأبيات من هذه اليتيمة وإلى الدوقلة المنسوبة إليه ، كتاب : التشبيهات الذي ألفه ابراهيم ابن أبي عون المقتول سنة ٣٢٢ هـ (٥) .

في حين أن مصادر نصوص الأدب العربي الشهيرة مثل كتب : الضبي ، والأصمعي ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، والأصبهاني ، وابن عبد ربه ، - فيما نعلم - لا تفيدنا بشيء عن هذه القصيدة ، ولا عن هذا الشاعر الملقب بهذا اللقب الغريب : الدوقلة .

فهل يعني هذا أن القصيدة إنما نظمت في عصر متأخر عن هؤلاء جميعاً ؟ .

ولكن إشارة ابن أبي عون - وهو من أهل القرن الرابع<sup>(١)</sup> كالأصبهاني وابن عبد ربه - تجعلنا في موقف التشكك والحيرة .

(٥) التشبيهات : ٩٧ ، تصحيح محمد عبد المعين خان ط . كبرج ١٩٥٠ م .

(١) [ ومن أشار إلى القصيدة في القرن الرابع الهجري الامام أبو الفتح بن جني

( ت ٣٩٢ هـ ) في كتابه الفسر الذي شرح فيه ديوان المتنبي ، فقد فسر بيت أبي الطيب :

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتبين الأشياء

ثم عقب على ذلك بقوله : « وهذا كقول المنجي :

ضدان لما استجمعا حسناً والضدُّ يظهر حسنه الضدُّ

وفي القرن السادس الهجري نجد القصيدة اليتيمة الدعدية من عيون الشعر العربي عند الرواة والمؤلفين . تحفظ ويعتنى بها . وتروى عن الشيوخ بالأسانيد في كتب الفهارس .

وفيقنا بهذا مصدران : أحدهما أندلسي ، وثانيهما شامي . فالمصدر الأندلسي هو فهرسة ابن خير الأموي الأندلسي الإشبيلي المتوفى سنة ٥٧٥ هـ فهذا المؤلف يروي هذه القصيدة اليتيمة عن شيخه الإمام أبي بكر ابن العربي المعافري ، دفين فاس المتوفى بها سنة ٥٤٣ هـ بحكم روايته إياها عن شيوخه في المشرق . ويسمى ابن خير صاحب القصيدة اليتيمة باسم : الحسين بن محمد المنبجي ، الملقب بدوقلة ، كما أنه تلقى من شيخه ابن العربي أنها تنسب لسبعة عشر شاعراً<sup>(٦)</sup> .

والمصدر الشامي هو كتاب : المنازل والديار ، لمؤلفه الأمير أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ .

= وهذا بيت مدخول لبس ، لأنه ليس كل ضدين إذا استجمعا حسنا ، ألا ترى أن الحسن إذا قرن بالقبح بان حسنُ الحسن وقبحُ القبيح ، ولم يحسنا جميعا . وبيت المتنبي أسلم ، لأن الأشياء بأضدادها يضح أمرها .... » . انظر مصورة مخطوط الفسر في خزانة مجمع اللغة العربية بدمشق ، وكتاب الفسر ( ط بغداد ١٩٦٩ م ) ١ : ٩٠ .

- وقد عدّد محققو القصيدة اليتيمة طائفة من المصادر التي أوردت شطراً أو بيتاً أو أبياتاً منها ، فذكروا ( الى جانب المصادر التي أوردتها الأستاذ صاحب المقال ) : الوساطة للجرجاني ، و بهجة المجالس لابن عبد البر ، وحماسة الظرفاء للعبدلكاني ، وشرح ديوان المتنبي للواحدي ، ومجموعة المعاني ، واللطائف والظرائف لأبي نصر المقدسي ، وتحرير التحبير لابن أبي الاصبغ ، وكتاب الآداب لجعفر شمس الخلافة .

- وفي حاشية للأستاذ أحمد راتب النفاخ أنه قد ورد بيتان من القصيدة اليتيمة في البحر المحيط لأبي حيان ( ٢ : ٣٦ ، ٦ : ٣١ ) / المجلة [ .  
(٦) فهرسة ابن خير : ٤٠١ ، ط . سرقسطة ١٨٩٣ م .

فقد روى أسامة بن منقذ من هذه القصيدة سبعة أبيات من أولها ، وهي المتعلقة بالأطلال ، لأنه يهيمه في كتابه : المنازل والديار ، أن يقدم أحسن ما قيل في هذا الموضوع .

وفيفيدنا ابن منقذ أن صاحب القصيدة هو سعيد بن حميد المنبجي المذحجي المعروف بالدوقلة<sup>(٧)</sup> . وهو بطبيعة الحال غير سعيد بن حميد الكاتب المشهور المتوفى أواسط القرن الثالث الهجري .

فالمصدران الأندلسي والشامي وإن كانا يتفقان في لقب الشاعر : الدوقلة ، فإنها يختلفان في اسمه اختلافا كبيرا ، ولا يذكران شيئا عن ترجمته ولا عن عصره .

وفي القرن السابع الهجري نجد أبا البقاء العكبري البغدادي المتوفى سنة ٦١٦ هـ في شرحه لديوان المتنبي عند شرحه لببيت المتنبي في قصيدته الهمزية التي مدح بها الكاتب المتصوف أبا علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي :

ونذيمهم وهم عرفنا فضله وبضدها تتبين الأشياء

يقول : قال أبو الفتح : هذا مأخوذ من قول المنبجي :

فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود  
ضدان لما استجمعا حسنا والضح يظهر حسنه الضد<sup>(٨)</sup>

(٧) المنازل والديار ١ : ٢٢٢ - ٢٢٣ . بيروت ١٩٦٥ م ، وانظر ط . القاهرة ١٩٦٨ م ، ص ١١٦ ، تحقيق مصطفى حجازي .

(٨) العكبري . شرح ديوان المتنبي : ١ : ٢٢ ، ط . بيروت ، ١٩٧٨ م ، تحقيق مصطفى السقا ومن معه .

فأبو البقاء العكبري ينقل عن أبي الفتح ابن جني المتوفى سنة ٢٩٢ هـ ما ذكره من أخذ المتنبي معنى الشطر الثاني من بيته :  
 « وبضدها تتبين الاشياء »  
 من شطر بيت المنبجي :  
 « والضد يظهر حسنه الضد »

والمنبجي في كلام العكبري وابن جني يكون بطبيعة الحال هو :  
 الدوقلة ، لأن البيتين اللذين ذكرهما ابن جني هما ضمن القصيدة اليتيمة  
 الدعوية التي بين أيدينا .

ونجد في العصر الحديث علامة العراق السيد محمود شكري الألوسي في كتابه « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » يذكر من هذه القصيدة اليتيمة واحدا وعشرين بيتاً في الفصل الذي خصه لما كان يستحسن من المرأة لدى العرب خلقاً وخلقا ، مستشهداً بما ورد في هذه الأبيات مما يتعلق بهذا الموضوع ، ويقدم ذلك بقوله : « .... وفي الشعر الجاهلي كثير من أوصاف النساء المحمودة من ذلك قول بعضهم من قصيدة ... »

ويعقب على اختياره بقوله : « والقصيدة طويلة ، ولها قصة مشهورة »<sup>(٩)</sup> .

فالألوسي كان يعتقد أن القصيدة جاهلية ، لذلك استشهد ببعض أبياتها على ما كان العرب يستحسنونه من صفات المرأة خلقاً وخلقا .  
 أما إشارته إلى قصتها المشهورة ، فهو يعني بذلك تلك الأسطورة التي حيكت حول أميرة عربية يمنية أو نجدية كانت فصيحة اللسان قوية

(٩) بلوغ الأرب ٢ : ٢٠ - ٢١ ، القاهرة ط . الثالثة بدون تاريخ .

الجنان ، أبت الزواج إلا من شاعر تعترف بتفوقه عليها . فنظم شاعر فارس هذه القصيدة وقصدها إلا أنه نزل في طريقه على شاعر كانت له نفس الرغبة ، فلما علم بقصده قتله وانتحل القصيدة لنفسه وقصد الأميرة ولكنه أخفق أمام امتحانها فأغرت به من قتله .

ولا يعيننا هنا الوقوف أمام هذه الأسطورة التي هي من نسج الخيال ، فالقصيدة ليست من الشعر الجاهلي في شيء : لا في روحها ولا في لغتها ولا في أسلوبها . نعرف ذلك من دراسة نصها والتعن في ذلك الرصف اللغوي الذي رصفت به الكلمات والأبيات والصفات الجسدية للمرأة ، كما نعرفه في تلك الحلة التي أضفاها الشاعر على نفسه في آخر القصيدة من العفة والمروءة والكرم ، مثل قوله :

ولقد علمت بأنني رجل	في الصالحات أروح أو أغدو
سلم على الأدنى ومرحمة	وعلى الحوادث هادئ جلد
متجلبب ثوب العفاف وقد	غفل الرقيب وأمكن الورد
ومجانب فعل القبيح وقد	وصل الحبيب وساعد السعد
منع المطامع أن تثمني	اني لمعولها صفاً صلداً

وينبغي ألا تغالطنا تلك الإشارات التي جاءت في بعض الأبيات مثل البيت الثاني والأربعين الذي يقول فيه :

إن تهمني فتهامة وطني	أو تنجدي إن الهوى نجد
وقوله في البيت السابع والخمسين :	

والجد كئيدة والبنون هم	فزكا البنون وأنجب الجد
------------------------	------------------------

فإن ناظم القصيدة رصف اللغة رصفاً وسبك الأبيات سبكاً وكان يملك طاقة شعرية ودراية أدبية تمكن بها من حشد المعاني والإشارات



حشدا كما يفعل فحول الشعراء في العصر العباسي .

وينبغي هنا ونحن نتحدث عن القصيدة اليتيمة ألا نغفل المقاليتين المفيدتين اللتين كتبهما العلامة الهندي المرحوم عبد العزيز الميني الراجكوتي . حول هذه القصيدة في مجلة : الزهراء<sup>(١٠)</sup> .

وعمل المرحوم الراجكوتي لفت الأنظار إلى هذه القصيدة بحثاً عن نصها الكامل . وبحثاً عن صاحبها الحقيقي . وقد نشر نصها ( باستثناء الأبيات المتعلقة بوصف بعض أعضاء دعد ) المرحوم محب الدين الخطيب صاحب مجلة الزهراء . في كتابه : الحديقة<sup>(١١)</sup> ونسبها إلى دوقلة المنبجي .

وكذلك اختارها الأستاذ أنيس المقدسي في كتابه : المختارات السائرة فوذحا للشعر الذي ينبغي أن يدرس لأنه يمثل خصائص لفظية ومعنوية...<sup>(١٢)</sup> ونسبها إلى دوقلة .

ثم تتابع ذكرها في الدراسات الأدبية المتعلقة بالعصر العباسي<sup>(١٣)</sup> . وكذلك المجموعات الشعرية المتعلقة بالشاعرين :  
- أبي الشيص الخزاعي المقتول سنة ١٩٦ هـ<sup>(١٤)</sup> .

(١٠) الزهراء ، س ٣ م ٤ ، ربيع الأول ١٣٤٥ هـ ، س ٤ م ٦ ، شعبان ١٣٤٦ هـ .

(١١) الحديقة ٦ : ١٩٦ - ٢٠٥ ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .

(١٢) المختارات السائرة ، ط الرابعة بيروت ١٩٥٥ م ، ص ١٥٨ .

(١٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي : د . مصطفى الشكعة ص ٤٢٩ ط . بيروت

١٩٧٣ م . وتاريخ الأدب العربي : د . عمر فروخ . ج ٢ ص ١٩٧ ط . بيروت ١٩٦١ م .

(١٤) أشعار أبي الشيص . جمعها عبد الله الجبوري . النجف ١٩٦٧ م ص ٤٢ - ٥١ ] ثم

أصدر الأستاذ عبد الله الجبوري : ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره ، ط . بيروت

١٩٨٤ م ، وتقع القصيدة الدعدية وقصتها وتخريجها في الصفحات : ١١٧ - ١٤٥ ] .

- وعلي بن جبلة الملقب بالعكوك المتوفى سنة ٢١٣ هـ<sup>(١٥)</sup> .

على اعتبار أن القصيدة تنسب إليها .

وقد جاء نص القصيدة محققاً في هاتين المجموعتين . وبلغت أبياتها ستة وستين بيتاً<sup>(٢)</sup> .

وهكذا تبقى هذه « اليتيمة » معلقة النسبة لانستطيع الجزم بنسبتها إلى شاعر معين .

أما هذه الدوقلة إن صح أنه شخص مَذْحِجِي منبجِي فإننا لانعرف عنه شيئاً يمكننا الجزم به ، إلا أن هذا لا يمنعنا من الإشارة إلى ما عثرنا عليه من إشارات تتعلق به .

فصاحب لسان العرب ابن منظور على كثرة ما عنده من أسماء الشعراء وألقابهم فإنه لم يعرج على هذا الدوقلة لا في مادة ( دقل ) ولا في غيرها .

بخلاف الفيروزابادي مؤلف القاموس المحيط . فإنه بعد أن شرح مادة ( دقل ) وبين مدلول كلمة : دوقلة بأسلوبه المعهود في الإيجاز . زاد قوله : « وشاعر » ولكنه لم يزدنا على ذلك شيئاً .

(١٥) شعر علي بن جبلة العكوك . جمعه د . حسين عطوان . ص ١١٥ - ١١٩ ط . القاهرة ١٩٧٢ م .

(٢) [ يحسن أن نشير هنا ايضاً الى كتاب الدكتور صلاح الدين المنجد : القصيدة اليتيمة - ط ٢ ، بيروت ١٩٧٤ م ، والى ديوان علي بن جبلة العكوك جمع زكي ذاكر العاني - بغداد ١٩٧١ م ] .

ونفس الشيء فعله شارحه الشيخ مرتضى في تاج العروس<sup>(3)</sup> .  
ومن الملاحظ أن كتابا بعنوان : معجم ألقاب الشعراء لمؤلفه  
د . سامي مكي العاني . نشره ببغداد سنة ١٩٧١ م المجمع العلمي العراقي .  
وهو معجم مفيد مرتب على حروف المعجم ذكر عددا كبيرا من ألقاب  
الشعراء ، لكنه لم يعرج على الدوقلة .

ولقب الدوقلة يذكرنا بلقب آخر شبيه به في اللفظ ، وهو :  
الدوخلة .... وهذا اللقب عُرف به علي بن منصور الحلبي<sup>(١٦)</sup> صاحب أبي  
العلاء المعري ، كما عرف بكنيته ابن القارح ، ورسائله مع أبي العلاء  
شهيرة في الأدب العربي .

وهكذا يدخل الدوخلة عالم المعرفة بينما يظل الدوقلة في عالم  
النكرات ، رغم أن هذه القصيدة اليتيمة نسبت إليه منذ قرون .

ولا نودع هذه القصيدة اليتيمة دون أن نشير الى قصيدة شبيهة بها  
للشاعر الأندلسي : محمد بن غالب الرصافي البلسني المتوفى سنة ٥٧٢ هـ ،  
مدح بها الوزير الوقشي . ومطلعها :  
الأجرع تحتلّه هـنـدٌ يندى النسيم ويأرج الرند<sup>(١٧)</sup>

(3) [ ومن قبلها قال الصغاني في التكملة والذيل والصلة ( د ق ل ) : « ودوقلة :  
شاعر » / المجلة ] .

(١٦) بغية الوعاة ( ط . الاولى ) ص ٣٥٥ ، ومعجم الادباء لياقوت ١٥ : ٨٣ ( ط .  
دار المامون ) .

(١٧) انظرها في ديوان الرصافي : ٥٣ ( ط . بيروت ١٩٦٠ م ) .